وقوله : ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه] وفي آية أخرى قال : ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى .. ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذى سيخلفه من بعده في قومه ، وهو شريكه في الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذي أخلفوه مع نبيهم موسى - عليه السلام -.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ ﴾

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعي البعض ، فتأتى مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعنى تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر ممَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] أى : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم ؟

قالوا : ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشيء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم ؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً ،

حيث لا ينتهي ألم الحملِ فيها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه]

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أى : قوم فرعون . وقالوا : إنهم كانوا فى أعيادهم يستعيرون الحُلِيّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيَّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذى واعدهم عليه ؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، ويصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن ردِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحليّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، لكن هذا القول مردود ؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه]

إذا أُطلقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب ، والقَذْف هو الرَّمْي بشدة ، وكأن الرامى يتأفّف أنْ يحمل المرميّ ، وفى ذلك دلالة على أن بني إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان ، فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامرى من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة فى النار[1] ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ يتصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى

---

(١) أورد القرطبي فى تفسيره (٦/٤٤٠٨) نحو هذا من قول قتادة : إن السامرى قال لهم حين استبطأ القوم موسى : إنما احتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلى ، فجمعوه ودفعوه إلى السامرى فرمى به فى النار ، وصاغ لهم منه عجلاً . ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام .

السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ ﴾ [طه] أي : ألقى ما معه من الحُلِيّ ، لكن فَرْق بين القذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلِّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ[1] فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أي : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر ﴿ عِجْلًا جَسَدًا .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [طه] كلمة جسد وردتْ أيضاً في القرآن في قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص]

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شيء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا المُلْك ويُذكِّره بأن هذا المُلْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعدك على كُرسيِّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل ـ والعياذ بالله ـ قد أصابه شلل كُلِّيٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادة على جوارحه . فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن ؟

---

(١) الخوار : صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل . وقد خار يخور : صاح . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْرة على كل الأجناس ؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى[1] أن سليمان - عليه السلام - ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢) ﴾ [سبأ] فداخله شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان - هكذا دون ألقاب - أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله ، ثم ردَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان - عليه السلام - وأناب .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أنْ يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع في نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة .. سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق - عز وجل - سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التي تكون نهايتها هكذا ؟

ففي قوله تعالى ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ .. (٨٨) ﴾ [طه] أي : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال ، صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أي : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامري هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه ؟

---

(١) أخرج الخطيب البغدادي في رواية مالك عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - قال : كان سليمان عليه السلام يركب الريح من اصطخر ، فيتغدى ببيت المقدس ، ثم يعود فيتعشى باصطخر . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦٧٧/٦) .

قالوا : لأن السامري استغلَّ تشوُّق بني إسرائيل ، وميلهم إلى الصَّنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم، ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن أنجاهم الله من فرعون ، وكان جديراً بهم شكر الله ، فإذا بهم يقولون وقد أتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨)﴾ [الأعراف]

فجاءهم بهذا العجل ، وقد ترقَّى به من الصنمية ، فجعله جسداً ، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً .

ثم يقول تعالى : ﴿فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه] أي : نسي السامري خميرة الإيمان في نفسه ، ونسي أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر ، وليْتَه يكفر في ذاته ، إنما هو يكفر ويُكفِّر الناس ، لا بُدَّ أنه نسي ، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبة عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)﴾

أي : كيف يعبدون هذا العجل ، وهو لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يملك لهم شيئاً ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا

---

(١) وقد قيل في هذه الآية تأويل آخر ذكره القرطبي في تفسيره (٦/٤٤٠٩) وابن كثير في تفسيره (٣/١٦٢) ومؤدى هذا أنه من كلام السامري عن موسى أنه ضل وذهب يطلب إلهه وهو هنا ، وعن ابن عباس قال : « أي فنسي موسى أن يذكر لكم أنه إلهه » .

عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾ [الشعراء]

فمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم على هذه المسألة ؛ لذلك فالحق - سبحانه - يناقش هؤلاء : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

أى : أخبرونا بالطريق الذى يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها . ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرّاً إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى (٩٠) ﴾

وكان هارون - عليه السلام - خليفة لأخيه فى غَيْبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ [الأعراف]

اخْلُفْنى واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضى فى القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شفع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ .. (٩٠) ﴾ [طه]

وهكذا وعظهم هارون على قَدْر استطاعته ، وبيَّن لهم أن مسألة

العجل هذه اختبار من الله . وكان تقديره في هذه القضية ألاَّ يدخل مع هؤلاء في معركة ؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم اثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون - عليه السلام - معركة لأفنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي ۝٩٠ ﴾ [طه] كما أخذتم العهد عند موسى .

﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ[1] حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١ ﴾

﴿ لَن نَّبْرَحَ .. ۝٩١ ﴾ [طه] . أي : سنظل على هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هي حَسْبَ ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصلَ لغرضي ، ولا أبرح هذا المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحال ، كما ورد في القرآن :

- للمكان والإقامة في قوله : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ .. ۝٨٠ ﴾ [يوسف]

- وللحال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ .. ۝٦٠ ﴾ [الكهف] أي : لا أبرح السير .

فالمعنى ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ .. ۝٩١ ﴾ [طه] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن تمكثَ هذه الفترة دون إله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣ ﴾

---

(١) أي : يقيمون عندها لعبادتها . [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون ﴿مَا مَنَعَكَ .. ﴿٩٢﴾﴾ [طه] وقد وردتْ هذه الكلمة في القرآن بأسلوبين : الأول : قوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .. ﴿٧٥﴾﴾ [ص] أي : ما منعك من السجود .

والآخر : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ .. ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف] ، أي : ما منعك أن لا تسجد ؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتي آخر فيُقنعك أن تفعل . فمرَّة يُرغمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجد . إذن : منعك أن تسجد يعني قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقي الأسلوبان .

فقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه] أي : من اتباعي ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم ؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذَّنْب لتسمع الردَّ منه ، فيكون ردّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر - رضي الله عنه - عند الحجر الأسود ، فلما قَبَّله قال : « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنّي رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتُك »[1] .

إذن : قبَّله عمر ؛ لأن رسول الله ﷺ قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجواب المستمر على مَرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١٢٧٠) كتاب الحج . قال النووي في شرحه : « وإنما قال : وإنك لا تضر ولا تنفع . لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمها ورجاء نفعها » .

وهنا أثارها موسى شبهة : كي نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً في طول الأزمان .

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي[1] وَلَا بِرَأْسِي[2] إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

إذن : صاحبَ خطابَ موسى لأخيه هارون فعلٌ نزوعيٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : ﴿ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه]

ثم ذكر العلة ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه] يقصد قول أخيه : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فذكّره بالتفويض الذي أعطاه إياه ، وقد اجتهد هارون حَسْب رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خلية الإيمان في بني إسرائيل ، اجتهد في إطار ﴿ وَأَصْلِحْ ﴿١٤٢﴾ .. ﴾ [الأعراف]

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما ليُسمع الدنيا كلّها على مرّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾

أي : ما شأنك ؟ وما قصتك ؟

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٦٣/٣) : « ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف » .

(٢) قال ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره . [تفسير القرطبي ٤٤١٢/٦] .

والخَطْب : يُقال في الحدث المهم الذي يُسمُّونه الحدث الجلل ، والذي يُقال فيه « خطب » ، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ[1] يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. (٥١)﴾ [يوسف]

وما حكاه القرآن من قول موسى ـ عليه السلام ـ لابنتَيْ شعيب : ﴿مَا خَطْبُكُمَا .. (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه عن السامري :

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا[2] وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾

مادة : بَصُرَ منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أي : بمعنى علمتُ .

فمعنى ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦)﴾ [طه] يعني : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قلَّدوني فيما فعلتُ من مسألة العجل .

---

(١) راوده على الشيء مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة . وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] : أي طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة ، ليتجاوز وينزل عن كبرياء نفسه وشرفها وعفتها . وهي كناية عن طلب المباشرة الجنسية . [القاموس القويم ١/ ٢٨١] .

(٢) نبذ الشيء : ألقاه ورماه . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٩] والنبذ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك . [لسان العرب ـ مادة : نبذ] .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل : لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامريُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه ، لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوَار مسموع .

وقوله : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا .. (٩٦) ﴾ [طه] قبض على الشيء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قبص[1] .

وقوله : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] للعلماء في هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامري حين كان جبريل عليه السلام يتعهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامري أن الجواد كلما مَرَّ على شيء اخضرَّ مكان حافره ، ودبَّتْ الحياة فيه ، لذلك : فأصحاب هذا القول رأوْا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعي ليس مجرد مرور الهواء من خلاله[2] .

ورأى آخر يقول : ﴿ مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] الرسول كما تعلم هو المبلِّغ لشرع الله المباشر للمبلَّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطلقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلِّم به . لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكُّم ، كما جاء في قوله تعالى :

(١) وهي قراءة الحسن البصري . فقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه كان يقرؤها « فقبصت » بالصاد . قال : والقبص بأطراف الأصابع . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٩٦] .

(٢) لهذا قالوا : معنى ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أي : من أثر فرسه . قال ابن كثير في تفسيره (٣/١٦٣) : « هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم » .

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ⑦﴾ [المنافقون]
فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ⑦﴾ [الفرقان]

إذن : قد يُراد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول ؟ الرسول جاء ليُبلِّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذي يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهي مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : ﴿فَنَبَذْتُهَا ..۞﴾ [طه] أي : أبعدتُها وطرحتها عن مُخيِّلتي ، ثم تركتُ لنفسي العنان في أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۞﴾ [طه] أي : زيَّنتها لي ، وألجأتني إلى معصية . فلا يقال : سوَّلَتْ لي نفسي الطاعة . إنما المعصية وهي أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول ووَحْيه الذي جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فِكْره ، ثم يسير بمَحْض اختياره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

كان ردّ موسى ـ عليه السلام ـ على هذه الفعلة من السامرى : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك ﴿لَا مِسَاسَ .. ۝٩٧﴾ [طه] والمِسَاس أى : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّى لأحد ، أو لا مساسَ من أحد لي .

ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة فى قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .

لذلك تراهم دائماً ـ فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية ـ يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسَب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حرية ما أنزل الله بها من سلطان ، كالذى خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .

ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أنصاراً يؤمنون بها ويُطبِّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهى نصف المجتمع ؟

إذن : ما أجملَ هذا الدين وما أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين ؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .

لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدّعي النبوة يُخفِّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع فى الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهى ثقيلة على النفس فلا داعيَ لها ، وإلاَّ فما الميْزة التى جاءوا بها

ليتبعهم الناس ؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد ؟

وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، واتباع ، وجمهور ، إذن : الذي أفسد حياته أن يجد العزَّ والمكانة في انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول ﴿لا مساس .. (٩٧)﴾ [طه] كأنه يفرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ منِّي أو تمسَّني .

لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التي كانت حوله وكان فيها عِزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهي سبب كَبْوته ، وهي التي أعانَتْه على معصية الله .

وهكذا ، كانت نهاية السامريّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه في البراري ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صَوْلته .

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشاب متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط في سلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذا به يصحو على صدمة الحق التي تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام : لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدتْ الأصنام من ثواب لمَنْ عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها ؟

فكأن الحق - تبارك وتعالى - قال للسامري : ستُعاقب بنفس المجتمع الذى كنت تريد منه العزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسَّك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَة السوء الذين يجتمعون على معصية الله فى سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلَّة الحقيقية الصادقة فهى للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثُّك عليها . فَرْق بين مَنْ يُسعدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمَّلْ .

ثم يقول : ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ .. (٩٧) ﴾ [طه] أى : ما ينتظرك من عذاب الآخرة

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) ﴾ [طه]

(عاكفاً) أى : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة فى المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجى .

ومعنى ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ .. (٩٧) ﴾ [طه] أى : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبرده بالمبرد حتى يصبح فُتاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه فى الهواء ﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) ﴾ [طه] أى : نذروه كما

يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفصل القشر عنها بآلة تسمى (المنسف)[1] تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تؤدي نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السامري كان هذا العجل الذي اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق في النار ، إنما نريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا تُبقِي له على أثر . وهذا هو إلهك الذي عبدته إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمي رُوحَه .

وبعد أن بيّن الحق - سبحانه - وَجْه البطلان فيما فعله السامري ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد ليذكّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء في هراء :

﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - حينما يقول : ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلّمناها من رسول الله ﷺ الذي سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهي الشهادة بالوحدانية الحقّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادة المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد

---

(١) ذكره ابن منظور في [لسان العرب - مادة : نسف] فقال : « نسف الشيء ، وهو نسيف : غربله . والنسف : تنقية الجيد من الرديء . ويقال للمنخل مُطوّل : المِنْسف . والمنسفة : الغربال » .

بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التي رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدَّعْوى ؛ لأنها قضية صادقة شَهِد بها سبحانه لنفسه ، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدَّعيها لنفسه .

وإلا - والعياذ بالله - أين ذلك الإله الذي أخذ الله تعالى منه الألوهية ؟ فإما أنْ يكون لا يعلم ، أو علم بذلك ولم يعترض ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً ، والدَّعْوى إذا لم تُجَبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها ، إلى أن يُوجَد المعارض .

وكان الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، وأنا خالق الكون كله ومُدبِّر أمره ، ولم يأت أحد حتى من الكفار يدَّعي شيئاً من هذا ، وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار ، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها ، فلم يدَّعها أحد إلى أنْ قال واحد منهم : هي لي ، إذن : فهو صاحبها ، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

يعني إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش ، إما ليخضعوا له ويستلهموا منه القدرة على فعل الأشياء ، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه : كيف يدَّعي الألوهية وهم آلهة ؟ ولم يحدث شيء من هذا كله ، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله ، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهي باطلة .

وينفي الحق سبحانه وجود آلهة أخرى ، فيقول في موضع آخر :
﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١)﴾ [المؤمنون]

فهذا إله للسماء ، وهذا إله للأرض ، وهذا للجن ، وهذا للإنس .. إلخ ، وبذلك تكون الميزة في أحدهم نقصاً في الآخر ، والقدرة في أحدهم عجزاً في الآخر ، وهذا لا يليق في صفات الألوهية .

ونلحظ هنا في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] أن كلمة (إله) لا تعني (الله) ، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى : إنما الله الله .

إذن : هناك فَرْق بين اللفظين : الله عَلَم على واجب الوجود الأعلى ، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر ، فالمعنى : أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود ، وصاحب الوجود الأعلى .

فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل ، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة ، فإذا كانت العبادة إطاعة أمر ونهي المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة ؟ وعن أيّ شيء نهتْهم ؟ وماذا أعدّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها ؟ إذن : هي معبودة ، لكن بالباطل ؛ لأنها آلهة بلا منهج .

وكلمة ﴿إِنَّمَا .. (٩٨)﴾ [طه] لا تأتي إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذي حضر زيد ، فلا تقولها إلا من ادَّعى أن الذي حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذي حضر زيد .

فلا بُدَّ أن قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] جاء ردّاً على كلام قبل يدَّعى أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِيَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفى الأمر الأول ، وتُثْبت ما بعدها .

وهنا يقول : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ .. (٩٨)﴾ [طه] لأن السامرىَّ لما صنع لهم العجل قال : ﴿هَٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ .. (٨٨)﴾ [طه] فكذَّبه الله واستدرك بالحقِّ على الباطل : ﴿إِنَّمَا إِلَـٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ .. (٩٨)﴾ [طه]

ثم أضاف الحق - تبارك وتعالى - ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾ [طه] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً ردٌّ على السامرىّ وما اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذى اتخذه لا علمَ عنده ، وكذلك السامرى الذى أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عجله سيُحرق ويُنسَف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التى انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .

ووسع علم الله لكل شىء يعنى : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عَمَّا علم منَّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا .. (٧)﴾ [غافر] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفى موضع آخر يقول عز وجل : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .. (١٥٦)﴾ [الأعراف]

فلو وقفنا عند ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾ [طه] لأتعبتْنا هذه المسألة ؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا ؟

● ● ●

ثم يُبيِّن الحق سبحانه حكمة القَصَص في القرآن ، والقَصَص لون من التاريخ ، وليس مُطلق التاريخ ، القصص تاريخ لشيء مشهود يهمني وتقيدني معرفته ، وإلا فمن التاريخ أن نقول : كان في مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أيَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حدَثاً متميزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسمّيها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيرة تاريخ قصة رسول الله ﷺ ؛ لأن القَصَص شيء مميز ، أما السيرة فهي أميز ، ورسول الله خاتم الأنبياء ؛ لذلك نقول عن تاريخه سيرة ولا نقول قصة ؛ لأن واقعه في الحياة كان سَيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلُقه القرآن .

والقصص يأتي مرة بالحدث ، ثم تدور حوله الأشخاص ، أو يأتي بشخصية واحدة تدور حولها الأحداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابية مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكرتَ الأشخاص التي تدور حوله ، فإنْ أردتَ التاريخ لشخصية عرابي وضعت الشخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَصص القرآن يختلف عن غيره من الحكايات والقصص التي نسمعها ونحكيها من وضع البشر وتأليفهم ، فهي قصص مُخْتَرعة تُبنى على عُقْدة وَحلِّها ، فيأخذ القاصُّ حدثاً ، ثم ينسج حوله أحداثاً من خياله .